فن الذكر والتعايش مع كتاب الله

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد كالذي نقول، ولك الحمد خيرًا مما نقول، ولـك الحمد على الرضا، ولك الحمد قبل الرضا، ولك الحمد بعد الرضا.

اللهم لك الحمد على نعمة القرآن، ولك الحمد على حلاوة القرآن، ولك الحمد على طعم الإيمان، ولك الحمد على نور الإيمان، ولك الحمد أن جمعت هذه القلوب المؤمنة الصادقة في رحاب حبك، وفي رحاب ودِك، وألَّفْتَ بين قلوبهم، وجعلت لهم لديك ودًّا، وجعلت لهم لديك حبًّا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ ..... [مريم:٩٦].

اللهم إنك تقلب القلوب، وتجمع القلوب، وتؤلف بين القلوب، اللهم إنك تحيي القلوب بعد الموت كما تحيي الأرض بعد الموت، فالأرض تشتاق إلى الغيـث والمطر، والقلوب تشتاق إلى إشراقات الإيمان، و إلى نور القرآن.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .....[فصلت:٣٩].

ومن علامات وحدانية الله وقدرته: أنك ترى الأرض يابسة لا نبات فيها، فإذا أنزل الله عليها المطر دبَّت فيها الحياة، وتحركت بالنبات، ونَمَت وعلت، إن الذي أحيا هذه الأرض بعد همودها قادر على إحياء الخلق بعد موتهم، إنه على كل شيء قدير، فكما لا تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، فكذلك لا تعجز عن إحياء الموتى.

أنزل من السماء ماءً وقرآنًا ونورًا وعلمًا، فالماء يحيي الأرض، والقرآن يحيي القلوب، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ .....[الرعد:١٧].

ضرب الله سبحانه مثلاً للحق والباطل بماء أنزله من السماء، فجَرَت به أودية الأرض بقدر صغرها وكبرها، فحمل السيل غثاءً طافيًا فوقه لا نفع فيه. وضرب مثلاً آخر: هو المعادن يوقِدون عليها النار لصهرها طلبًا للزينة كما في الذهب والفضة، أو طلبًا لمنافع ينتفعون بها كما في النحاس، فيخرج منها خبثها مما لا فائدة فيه؛ كالذي كان مع الماء، بمثل هذا يضرب الله تعالى المثل للحق والباطل: فالباطل كغثاء الماء يتلاشى أو يُرْمى إذ لا فائدة منه، والحق كالماء الصافي، والمعادن النقية تبقى في الأرض للانتفاع بها، كما بيَّن لكم هذه الأمثال، كذلك يضربها للناس؛ ليتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

فكل قلب له استيعاب إيماني، وكل قلب له مساحة إيمانية، وكل قلب له نصيب من الإيمان، وله نصيب من القرآن، والأودية منها ما هو واسع، ومنها ما هو ضيق، ومنها ما هو بين هذا وذاك، ومنها أودية مسدودة، ومنها أودية منبسطة انبساطًا كبيرًا عجيبًا... وهكذا القلوب؛ كل قلب منا له استيعاب معين حتى وصلنا إلى أعظم قلب للاستيعاب؛ وهو قلب النبي العظيم ﷺ.

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن»، قال: فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، فقرأت النساء، حتى إذا بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا

بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ ....[النساء:٤١]. فقال: حسبك، فرفعت رأسي -أو غمزني رجل إلى جنبي، فرفعت رأسي- فرأيت دموعه تسيل[1].

أي: فكيف يكون حال الناس يوم القيامة، إذا جاء الله تعالى من كل أمة برسولها ليشهد عليها بما عملت، وجاء بك -أيها الرسول- لتكون شهيدًا على أمتك أنك بلغتهم رسالة ربِّك.

إن قلب النبي ﷺ وصل إلى حالة من الاستيعاب العالي، وحالة من الامتلاء بالنور، فقال له: «حسبك»، أي: توقَّفْ عن القراءة؛ لأن القلب امتلأ نورًا، ولأن العين امتلأت بكاءً؛ لأجل هذا جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.... [المائدة:٨٣].

ومما يدل على قرب مودتهم للمسلمين أن فريقًا منهم «وهم وفد الحبشة لما سمعوا القرآن» فاضت أعينهم من الدمع، فأيقنوا أنه حقٌّ منزل من عند الله تعالى، وصدَّقوا باللَّه واتبعوا رسوله ﷺ، وتضرعوا إلى الله أن يكرمهم بشرف الشهادة مع أمَّة محمد ﷺ عن باقي الأمم يوم القيامة.

إنهم وصلوا إلى حالة المعايشة مع القرآن، وإذا سمعوا صارت الآذان واعية في حالة إقبال، وصار القلب في حالة قبول، فلما صارت الآذان في وعي، والقلب في حالة إنصات، ما النتيجة إذن؟ ترى أعينهم تفيض من الدمع، أي أن البكاء من خشية الله تعالى يساوي أمرين: يساوي آذانًا واعية، وقلبًا حاضرًا.

فهؤلاء وصلوا إلى مرحلة المعرفة باللَّه، فلما وصلوا إلى حالة المعرفة باللَّه تعرفوا إلى الله تعالى بالدعاء، يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رقم ٨٠٠ .

هذه الآيات في سورة المائدة، وهي تعرفك مراتب الإيمان، قال الله تعالى: ﴿....تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ .... [المائدة:٨٣].

فنحن الآن كأننا في روضة من رياض الجنة، ومعسكر إيماني كبير اجتمعت فيه قلوبنا وأرواحنا وأبداننا على تلاوة القرآن، وعلى حب القرآن، وعلى نور القرآن، سنعيش أجواء جميلة، هذه الأجواء سنعيشها مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧].

أي: ولقد سَهَّلْنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، فهل من متعظ به؟

نحن يا رب نحاول أن نتذكر، ونحاول أن نتدبر، ونحاول أن نأخذ معاني القرآن؛ كي نطبقها في حياتنا، وهذا الذي نحرص عليه، وهذا الذي نركز عليه في حياتنا، نريد لهذه الجوانب الإيمانية أن تكون حية في قلوبنا، وفي بيوتنا، وفي شوارعنا، وبين أبنائنا، وبين شبابنا وفتياتنا؛ لعل الله تعالى أن يذيقنا وإياكم حلاوة الإيمان.

الإنسان يعيش مع القرآن، والتلاوة، والحفظ، والترتيل، والتجويد... وكل هذه المعاني جميلة، لكن الأجمل أن تعيش حالة القرآن.

إن الله تعالى يريد منك أن تكون شغوفًا بالقرآن إلى حد التعلق، أي: التعلق الشديد بالقرآن الكريم، وهذه تسمى حالة التعلق، أو حالة الحب، أو حالة الشغف بالقرآن الكريم.

إن الله تعالى لم يقل: ولقد يسرنا القرآن للتلاوة، ولم يقل: ولقد يسرنا القرآن للحفظ، ولم يقل: ولقد يسرنا القرآن للتدبر، ولم يقل العظيم الكريم: ولقد يسرنا

القرآن للتجويد، وإنما قال الملك العظيم الحنان المنان: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾...[القمر:١٧].

إن هذه الآية تحولك من حالة أنك ذاكر -أي تالٍ- إلى كونك ذكارًا، فإنني إذا قلت مرة واحدة: ﴿..... رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.... [البقرة:٢٠١]، فأنا ذاكر ولست ذكارًا -أي: كثير الذكر-.

وكذلك قوله تعالى: ﴿.... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.....[البقرة:٢٨٦]. وقوله تعالى: ﴿.....رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ....[الفرقان:٦٥].

فلو قلتها مرة واحدة فأنا ذاكر، لكن هذا لا يكفي، وإنما مطلوب منك أن تكون ذكَّارًا بالقرآن، أي: كثير الذكر، فقد كان النبي ﷺ يقيم ليلة كاملة من بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر بآية واحدة، فعن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: صلَّى رسول الله ﷺ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ....[المائدة:١١٨]، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها، فقال: إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل شيئًا[1].

فالنبي ﷺ كان يقيم ليلة كاملة وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ .....[المائدة:١١٨].

إنك يا الله إن تعذبهم فإنهم عبادك، وأنت أعلم بأحوالهم، تفعل بهم ما تشاء بعد

(١) أخرجه أحمد في المسند، عن أبي ذر رضي الله عنه، رقم ٢١٣٢٨.

ذلك، وإن تغفر برحمتك لمن أتى منهم بأسباب المغفرة، فإنك أنت العزيز الذي لا يغالَبُ، الحكيم في تدبيره وأمره، وهذه الآية ثناء على الله تعالى بحكمته، وعدله، وكمال علمه.

ولذلك الذي يتعلق بالقرآن، ويتعلق ببعض آيات القرآن ينام وقلبه متعلق بالآية التي يحبها، فصار القرآن بالنسبة له عبارة عن حالة: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ....[الأنبياء:٨٧].

واذكر قصة صاحب الحوت، وهو يونس بن مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أرسله الله إلى قومه، فدعاهم فلم يؤمنوا، فتوعَّدهم بالعذاب فلم ينيبوا، وخرج مِن بينهم غاضبًا عليهم، ضائقًا بعصيانهم، وظن أن الله لن يضيِّق عليه، ويؤاخذه بهذه المخالفة، فابتلاه الله بشدة الضيق والحبس، والتقمه الحوت في البحر، فنادى ربه في ظلمات الليل والبحر، وبطن الحوت تائبًا معترفًا بظلمه؛ لتركه الصبر على قومه، قائلاً: لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين.

لو استغفرت بها مرة واحدة فإني ذاكر، والله تعالى يريدك ذكَّارًا؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ ....[القمر:١٧].

الجميل في القرآن الكريم أن الذكر لله سبحانه وتعالى يعالج مشكلات في الحياة لا نهاية لها، تخيل واحدًا دخل بيته غاضبًا حزينًا مرهقًا من العمل طوال اليوم، فدخل البيت ولم يلقِ السلام، وما استغفر، فدخل البيت فوجد شيئًا لا يعجبه، فهاج وعلا صوته، فإذا بالزوجة بدلاً من أن تلاطفه فترد عليه هي الأخرى بطريقة فيها شد وجذب، فأصبح البيت فيه عراك يفرح به الشيطان ويرقص؛ لأن واحدًا منهما لم يذكر الله تعالى، لو أن أحدهما استغفر الله لطرد الشيطان، لو أن أحدهما ذكر الله لخمدت نار الشيطان، ولكن البيوت التي لا يذكر فيها الله تعالى، ولا يذكر فيها اسم الله تعالى، ولا يقرأ فيها

القرآن العظيم إنما هي بيوت للشياطين يرقصون فيها، ويقيمون فيها أفراحهم ومعازفهم ومراقصهم.

كذلك لو كان عند المسلم مشكلة في حياته، فعليه أن يستعين على هذه المشكلة بكثرة ذكر الله.

فلو أن شخصًا عنده مشكلة كبيرة، وألهمه الله الدعاء، وألهمه صيغة معينة من صيغ الذكر؛ فإن هذه الصيغة تكون بابًا من أبواب الفرج، لكن حبذا لو أن هذه الصيغة يأتي فيها لفظ «الله»؛ فإنه يكون لها سر عجيب.

لو حدثتك عن الأسرار الموجودة في كلمة «الله» فإنني سأحتاج إلى الكثير، فكل أسماء الله الحسنى طيبة، وكلها لها أسرار، وكلها لها فتح، لكن لماذا أفضل الذكر ما كان باسم الله تعالى؟ لأن القرآن الكريم هو الذي علمك هذا، فالذكر باسم الله تعالى له معنى عجيب جميل؛ ولذلك فإن الله تعالى قال: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ ....[الإسراء:١١٠].

قل -أيها الرسول- لمشركي قومك الذين أنكروا عليك الدعاء بقولك: يا الله يا رحمن: ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، فبأي أسمائه دعوتموه فإنكم تدعون ربًّا واحدًا؛ لأن أسماءه كلها حسنى، ولا تجهر بالقراءة في صلاتك، فيسمعك المشركون، ولا تُسِرَّ بها فلا يسمعك أصحابك، وكن وسطًا بين الجهر والهمس.

هل تخيل أحدكم أن يعيش في بطن الحوت أربعين يومًا؟ هل تخيل أحدكم أن يصبر على الطعام والشراب أربعين يومًا وليلة، وهو محبوس في بطن الحوت؟ هل تفكر أحدكم في هذا؟ هل تخيلت هذا؟ هل أتى هذا على ذاكرة قلبك لعله يأتي إليك إحساس بهذا؟ وماذا أنت فاعل؟ ونجاتك في يد من؟ جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾..... [الصافات:١٤٣].

فلولا ما تقدَّم له من كثرة العبادة والعمل الصالح قبل وقوعه في بطن الحوت وتسبيحه، وهو في بطن الحوت بقوله: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

فعليك أن تكون مثل خالد بن معدان، الذي قال عنه ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم: وكان خالد بن معدان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة سوى ما يقرأ من القرآن، فلما مات وُضِع على سريره ليغسل، فجعل يشير بأصبعه يحركها بالتسبيح[1]! فلا بد أن يكون لك نصيب من سيرة هذا الرجل.

قال تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ....[الصافات:١٤٤]. أي: لمكث في بطن الحوت وصار له قبرًا إلى يوم القيامة.

فاستشعار الإنسان أنه إذا سبح فإن التسبيح سيأتي له بالفرج فهذا أمر جميل جدًّا، واستشعار الإنسان أنه إذا ذكر، ولم يكن من الغافلين فإن ذكره لله سبحانه وتعالى سيجعل له ذكرًا في الملأ الأعلى، وهل هناك فرج أفضل من هذا؟

تقول: أنا عندي مشكلة، ولكن لم تحل وأنا أذكر الله كثيرًا، مَن قال لك: إنها لم تحل؟! لقد حُلَّت؛ لأنك عندما ذكرت الله تعالى في الأرض فإن الله تعالى ذكرك في السماء، وأي فرج أعظم من هذا؟ وهل هناك فَرَج أحسن من هذا؟ إن ربنا الملك العظيم يذكرك بين سكان سماواته، وبين حَمَلَةِ عرشه، هذا هو الفرج كله كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ....[غافر:٧].

الذين يحملون عرش الرحمن من الملائكة، ومَن حول العرش ممن يحف به منهم، ينزِّهون الله تعالى عن كل نقص، ويحمَدونه بما هو أهل له، ويؤمنون به حق الإيمان،

(١) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ص ٤٤٦ .

ويطلبون منه أن يعفو عن المؤمنين، قائلين: ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا، فاغفر للذين تابوا من الشرك والمعاصي، وسلكوا الطريق الذي أمرتهم أن يسلكوه وهو الإسلام، وجَنِّبْهم عذاب النار وأهوالها.

وأقدم لك جملة من المعاني التي تعيشها لكي تكون أوَّاهًا؛ لأنك إذا كنت أوَّاهًا ذكَّارًا فإن الله تعالى سيرضى عنك... كان هناك رجل من مزينة يسمى بعبد الله، وكان يتيمًا يعيش في حجر عمه -أي: في رعاية عمه، وعمه هو الذي كان ينفق عليه- فلما أسلم عبد الله، ودخل في الإسلام وذاق حلاوة الإيمان، وتغيرت حالته من حال إلى حال فأصبح بالإيمان، وبالإسلام، وبحب النبي العدنان ﷺ في خير حال، نزع منه عمه كل شيء، أخذ منه كل شيء، حتى جرَّده من الثياب التي كان يلبسها...

هذا الموضوع يحدث كثيرًا هذه الأيام، فبعض الناس عندما يلتزم فإن كثيرًا لا يرضون عنه، ولا يعجبون به، وينصرفون عنه، وكثير من الأخوات عندما يلبسن النقاب فإذ بالناس يبتعدون عنهن تمامًا، وكثير من الناس عندما يتركون عملاً معينًا لأجل مرضاة الله فإن الدنيا تغلق في وجوههم.

وبعض الناس يقول كلمة الحق دون أن يدري، يقولها بسجية المسلم، فإذا بهذه الكلمة التي قالها تستجلب عليه عداوة الآخرين.

يقول ابن أبي الدنيا في كتابه «الأولياء» في حكاية ذي البجادين: كَانَ رَجُلٌ مِنْ مُزَيْنَةَ مِمَّنْ كَانَ فِي نَوَاحِي الْمَدِينَةِ فِي حِجْرِ عَمٍّ لَهُ، فَكَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَيَكْفُهُ، فَأَرَادَ الإِسْلامَ، فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ: لَئِنْ أَسْلَمْتَ لأَنْتَزِعَنَّ مِنْكَ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعْتُ إِلَيْكَ، فَأَبَى إلا أَنْ يُسْلِمَ، فَانْتَزَعَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعَهُ بِهِ حَتَّى إِزَارٍ وَرِدَاءٍ كَانَا عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ إِلَى أُمِّهِ مُجَرَّدًا، فَقَامَتْ إِلَى بِجَادٍ لَهَا مِنْ شَعْرٍ أَوْ صُوفٍ فَقَطَعَتْهُ بِاثْنَيْنِ، فَاتَّزَرَ بِأَحَدِهِمَا وَارْتَدَى بِالآخَرِ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ

ﷺ فَصَلَّى مَعَهُ الصُّبْحَ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ تَفَقَّدَ النَّاسَ وَنَظَرَ فِي وُجُوهِهِمْ فَرَآهُ، فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ؟». قَالَ: أَنَا عَبْدُ الْعُزَّى، وَكَانَ اسْمَهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «بَلْ أَنْتَ عَبْدُ الله ذُو الْبِجَادَيْنِ، الْزَمْنَا وَكُنْ مَعَنَا».

فَكَانَ يَكُونُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَفِي حِجْرِهِ، قَالَ: فَكَانَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ جَهَرَ بِالدُّعَاءِ وَالاسْتِغْفَارِ وَالتَّمْجِيدِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ الله، أَمُرَاءٍ هُوَ؟ قَالَ: «دَعْهُ، فَإِنَّهُ أَحَدُ الأَوَّاهِينَ»، قالَ: فَلَمَّا كَانَ فِي غَزَاةِ تَبُوكَ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَمَاتَ، قَالَ: فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا أَنَا بِنَارٍ لَيْلاً فِي نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا رَسُولُ الله، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ مَا مَعَهُمْ رَابِعٌ، فَإِذَا ذُو الْبِجَادَيْنِ قَدْ مَاتَ، وَرَسُولُ الله فِي الْقَبْرِ وَهُوَ يَقُولُ: «دَلِّيَا إِلَيَّ أَخَاكُمَا»، قَالَ: فَأَضْجَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ لِشِقِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ عَنْهُ رَاضِيًا فَارْضَ عَنْهُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ عَنْهُ رَاضِيًا فَارْضَ عَنْهُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتَ عَنْهُ رَاضِيًا فَارْضَ عَنْهُ». قَالَ: فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَهُ فِي حُفْرَتِهِ[1].

إذن ظل عبد الله ذو البجادين ملازمًا رسول الله ﷺ، وجالسًا على بابه، فكان إذا دخل عليه الصحابة فإذا هو يذكر الله طوال الليل، ذاكرًا طوال النهار، مشغول بذكر الله سبحانه وتعالى، فكان سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأل النبي ﷺ: يا رسول الله، أهو مراءٍ يذكر الله ليلاً ونهارًا؟ فقال النبي ﷺ: «لا، إنه من الأواهين». أي: أواه كثير الذكر، كثير العبادة، كثير الانشغال بذكر الله تعالى.

لكن مشكلتنا في حياتنا أن المظاهر تأخذ من قلوبنا كثيرًا، فننشغل بالمظاهر المزيفة، والصور المزركشة في حياتنا، فنتحول كلنا إلى رسوم وإلى صور، ولكن هذا ليس هو المطلوب، ولكن المطلوب: أين قلبك من الله؟

(١) أخرج هذه القصة ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، فضل عبد الله ذي البجادين، رقم ٧٥.

قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين -أي: يرتدي ثيابًا من قطعتين، فيهما بساطة وعدم تكلف- مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»[1]، أي لو قال: اللهم اجعل هذا الماء شفاء سيكون شفاء.

وقد يكون هذا الرجل مثل أبي العلاء الحضرمي، هذا الرجل له قصص كبيرة وكثيرة، إنه رجل صاحب كرامات، وكان من أصحاب النبي العظيم ﷺ ومن المجاهدين في سبيل الله عز وجل، وكما أن المجاهد يعطي لله بقلبه فإن الله تعالى يعطيه من آيات تثبيته العظيمة؛ ولذلك لما أتى الأحزاب من جميع نوازع العرب -أي: قبائل العرب-، واجتمعوا حول مدينة رسول الله ﷺ، يحاربون نور الله، يريدون أن يطفئوا نور الله، يريدون أن يقتلوا رسول الله وأصحاب رسول الله ﷺ، ماذا فعل أصحاب النبي ﷺ في هذه الأزمة وهم محاصرون؟

القرآن الكريم هو الذي يجيبك، فقد أعطاك في سورة الأحزاب دروسًا عظيمة، وهذه خاطرة مهمة، لكن قبل أن أذكر لك هذه الخاطرة، اعلم أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك: إذا كان حق الإنسان يضيع بين الناس، وإذا كان الناس يستخفون بك أحيانًا، وإذا كان الناس يسخرون منك أحيانًا، وإذا كان الناس يحيلون بينك وبين تبليغ رسالتك، فماذا أنت فاعل؟ انظر في سورة الأحزاب.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ....[الأحزاب:٢١].

لقد كان لكم -أيها المؤمنون- في أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله قدوة حسنة تتأسون بها؛ فالزموا سنته؛ فإنما يسلكها ويتأسى بها مَن كان يرجو الله واليوم الآخر، وأكثرَ مِن ذكر الله واستغفاره، وشكره في كل حال.

(١) أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك رضي لله عنه، رقم ٣٨٥٤ .

فكلمة «كثيرًا» مهمة جدًّا؛ لأن نجاتك من الأحزاب، ومن شياطين الإنس، ومن شياطين الجن في كلمة «كثيرًا»، ففي هذه الآية «٢١» وفي الآية «٣٥» يذكر الله تعالى جل جلاله مراتب الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ....[الأحزاب:٣٥].

إن المنقادين لأوامر الله والمنقادات، والمصَدِّقين والمصدِّقات، والمطيعين لله ورسوله ﷺ والمطيعات، والصادقين في أقوالهم والصادقات، والصابرين عن الشهوات وعلى الطاعات وعلى المكاره والصابرات، والخائفين من الله والخائفات، والمتصدقين بالفرض والنَّفْل والمتصدقات، والصائمين في الفرض والنَّفْل والصائمات، والحافظين فروجهم عن الزنا ومقدماته وعن كشف العورات والحافظات، والذاكرين الله كثيرًا بقلوبهم وألسنتهم والذاكرات، أعدَّ الله لهؤلاء مغفرة لذنوبهم وثوابًا عظيمًا، وهو الجنة.

ونرتقي حتى نبلغ أعلى المراتب في الإسلام، والتي تبدأ بالإيمان، ثم بالقنوت، وبالصبر، وبالصدق، وبالخشوع، وبالتصدق، وبحفظ الفرج، ثم ماذا؟ والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعَدَّ الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا.

لأجل هذا؛ فمراتب الإسلام، ومراتب القرآن، ومراتب القنوت، ومراتب الصبر، والصدق، والتصدق، والخشية، والخشوع لله سبحانه وتعالى، والصيام، وحفظ الفرج كل هذا ينتهي بك إلى أعلى مرتبة، والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا.

ثم ذكر في الآية «٤١» كيف ننجو من تكالب الأحزاب علينا؟ وكيف ننجو من تكالب النفوس الخبيثة علينا؟ وكيف ننجو من الذين يصدون عن سبيل الله؟ وكيف

ننجوا من المعوقين في حياتنا؟ وكيف ننجو من ضعف همتنا وتكاسلنا؟ الإجابة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾....[الأحزاب: ٤١، ٤٢].

يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذِكْرًا كثيرًا، وأشغلوا أوقاتكم بذكر الله تعالى عند الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضات، وعند العوارض والأسباب؛ فإن ذلك عبادة مشروعة، تدعو إلى محبة الله، وكف اللسان عن الآثام، وتعين على كل خير.

كلمة «كثيرًا» جاءت في سورة الأحزاب ثلاث مرات، أي أن الله تعالى يعلمك أن النبي العظيم ﷺ وأن أصحاب النبي العظيم ﷺ عندما كانوا في هذا الموقف الصعب، وعندما تكالبت الدنيا عليهم، والعرب، واليهود، والكفار، وغيرهم، والحاسدون، والحاقدون، والمتربصون، ما جعل الله نجاتهم إلا في ذكر الله عز وجل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾....[الأنفال:٤٥].

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر قد استعدوا لقتالكم، فاثبتوا ولا تنهزموا عنهم، واذكروا الله كثيرًا، داعين مبتهلين لإنزال النصر عليكم والظَّفَر بعدوكم؛ لكي تفوزوا.

لقد تعلمنا من السنة الشريفة أن ذِكر الله تعالى يغفر الذنوب، وتعلمنا أن ذِكر الله تعالى يرفع الدرجات، وتعلمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطيك الأجر العظيم.

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾....

[آل عمران:١٣٥].

والذين إذا ارتكبوا ذنبًا كبيرًا أو ظلموا أنفسهم بارتكاب ما دونه، ذكروا وعد الله ووعيده فلجأوا إلى ربهم تائبين، يطلبون منه أن يغفر لهم ذنوبهم، وهم موقنون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، فهم لذلك لا يقيمون على معصية، وهم يعلمون أنهم إن تابوا تاب الله تعالى عليهم.

فكلمة الذِّكر تستشعر فيها معنى الرفعة لك، فكل صفات الذم، وكل صفات أصحاب الذنوب، وكل صفات أصحاب المعاصي الذين ماتت قلوبهم، فإن قلوبهم تحيا مع ذكر الله تعالى، ومع تلاوة القرآن العظيم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾....[آل عمران:١٣٥].

فصلاة التوبة، وصلاة الأوبة، وكثرة الاستغفار، وكثرة الدعاء هو الذي يؤدي إلى محو الذنوب، لكن الأمر يحتاج إلى مجاهدة، ويحتاج إلى صبر، فما دام الذكر كثيرًا يحتاج إلى صبر أكثر؛ ولذا قال تعالى في سورة غافر «سورة المؤمن»: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ ....[غافر:٥٥].

فاصبر -أيها الرسول- على أذى المشركين، فقد وعدناك بإعلاء كلمتك، ووعْدُنا حق لا يتخلف، واستغفر لذنبك، ودُمْ على تنزيه ربك عمَّا لا يليق به، في آخر النهار وأوله.

فاصبر إن وعد الله حق؛ لأن الشخص منا يعلم ويوقن أنه لو ذكر الله، وعمل بطاعته فإن العظيم سيكافئه عليه بالأعظم، فقال لك: اصبر على الطاعة، وأعظم الصبر هو الصبر على الطاعة، فاصبر إن وعد الله حق، واستغفر لذنبك، وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار؛ لأجل هذا فالصبر على ذكر الله تعالى يحتاج إلى شيء مهم جدًّا؛ وهو المتابعة، فالطاعة تحتاج إلى تجدد، وإلى عطاء.

إن الله جل جلاله وتباركت أسماؤه جعل في هذا القلب مستودعًا لأنوار عظيمة جدًّا كما في السورة نفسها في موضع آخر للصبر: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ ....[غافر: ٧٧].

فاصبر أيها الرسول، وامض في طريق الدعوة؛ إن وعد الله حق، وسيُنْجِز لك ما وعدك، فإما نرينَّك في حياتك بعض الذي نعد هؤلاء المشركين من العذاب، أو نتوفينَّك قبل أن يحلَّ ذلك بهم، فإلينا مصيرهم يوم القيامة، وسنذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون.

إن الناظر في النظريات القديمة يجد أن القلب عبارة عن مضخة للدماء، ودوره أنه يضخ الدماء إلى كل أنحاء الجسم، وعندما يتوقف القلب تتوقف معه الحياة، والحقيقة أن القرآن لم يقل هذا، نعم، هذه نظرية علمية، لكن القرآن الكريم أوسع مددًا، وأوسع عطاءً، وحتى البحوث العلمية الحديثة التي جاءت حديثة جدًّا تقول كلامًا مخالفًا لهذه النظرية: إن القلب مضخة من حيث الناحية الوظيفية العضوية، ولكنه هو أيضًا محل للخشوع ومحل لنظر الرحمن، ومحل للتعقل والتدبر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ....[ق: ٣٧].

إن في إهلاك القرون الماضية لعبرة لمن كان له قلب يعقل به، أو أصغى السمع وهو حاضر بقلبه، غير غافلٍ ولا ساهٍ.

كلمة «ذِكرَى» ترجعك إلى الذِّكر، أي: قلب فيه مشاعر، وقلب فيه إيمان، وقلب فيه حب، وقلب فيه عطاء، وقلب يعرف الناس الفقراء، ويهتم بحالهم.

إذن هناك فرق بين قلب يعيش الإيمان بكل ذرات الإيمان، وقلب «خارج إطار الخدمة»، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ....[ق: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ ....[هود:١١٤].

وأدِّ الصلاة -أيها النبي- على أتمِّ وجه طَرَفَي النهار في الصباح والمساء، وفي ساعات من الليل، إنَّ فِعْلَ الخيرات يكفِّر الذنوب السالفة ويمحو آثارها، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات، موعظة لمن اتعظ بها وتذكر.

فالذي يحوِّل السيئات إلى حسنات هو الله تعالى، وذلك بعد أن يفعل الإنسان الحسنات، اقرأ الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.....[هود:١١٥].

واصبر -أيها النبي- على الصلاة، وعلى ما تَلْقى من الأذى من مشركي قومك؛ فإن الله لا يضيع ثواب المحسنين في أعمالهم.

وجاء في سورة الرعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾ ....[الرعد:٢٩]. أي: الذين صدَّقوا باللَّه ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحات لهم فرح، وقرة عين، وحال طيبة، ومرجع حسن إلى جنة الله تعالى ورضوانه.

مَن هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ وما وظيفتهم؟ ومَن هم الذين جعلت لهم طوبى في الجنة؟ جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ .....[الرعد:٢٨].

أي: ويهدي الذين تسكن قلوبهم بتوحيد الله وذكره فتطمئن، ألا بطاعة الله وذِكره وثوابه تسكنُ القلوب وتستأنس؟!

وتلاحظ أن كلمة الذكر جاءت في هذه الآية مرتين، وأن كلمة القلب جاءت في الآية نفسها مرتين، وأن الطمأنينة جاءت في الآية نفسها مرتين، فالملاحَظ أن الذِّكر هنا

مع الطمأنينة، والطمأنينة هنا مع القلب، فلو أن أحدًا يرسم رسمًا بيانيًّا يجد هذه الأرقام متوازنة متآلفة، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ ..... [الرعد:٢٨].

ذكر مع ذكر... وقلب مع قلب... وطمأنينة مع طمأنينة... فالذكر مع القلب يؤدي إلى الطمأنينة، والذكر في القلب، واللسان يعمل، ونعرف أن أفضل الذكر هو الذكر الخفي -أي: تذكر بقلبك-، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ ....[الأعراف:٢٠٥].

واذكر -أيها الرسول- ربك في نفسك تخشعًا، وتواضعًا لله، خائفًا، وَجِل القلب منه، وادعه متوسطًا بين الجهر والمخافتة في أول النهار وآخره، ولا تكن من الذين يَغْفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه في سائر أوقاتهم.

هذا باحث هولندي ليس مسلمًا جمع مجموعة من الناس «المسلم وغير المسلم»، وأجلسهم يعلمهم أن يرددوا كلمة الله، وتلاحظ أن لفظ الجلالة فيه أسرار ذكرها الباحث، وأسرار عجيبة نحن لا نعرف إلا القليل، فمعلوماتنا عن الإيمان ضعيفة، وعن القرآن أضعف، وعن أنفسنا أضعف، وعن الكون أضعف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ ....[الإسراء:٨٥].

ويسألك الكفار عن حقيقة الروح تعنتًا، فأجبهم بأن حقيقة الروح وأحوالها من الأمور التي استأثر الله بعلمها، وما أُعطيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا شيئًا قليلاً.

الباحث الهولندي عمل دراسة على تأثير كلمة الله في الجهاز التنفسي وفي القلب، والقرآن الكريم في سورة الرعد ألمح إلى هذا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ .....[الرعد:٢٨].

ألا بذكر الله، أي: فيه أسرار مزلزلة، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، وأنت بالفعل لو قرأت هذه الآية في سورة الرعد، ولو فهمت هذه الآية فإنها تكفيك؛ لأنك ستعرف أن الطريق إلى الجنة يبدأ بتصحيح هذا القلب، وأن تضخ في قلبك معاني جديدة، وأن تغسل هذا القلب، وأن تنور هذا القلب، وأن تطهِّر هذا القلب، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ .....[الرعد:٢٨].

لو تأملت هذا البحث معنا الذي أجراه الباحث الهولندي على معنى تكرار لفظ الجلالة وحده، أو تكرار لفظ الجلالة في آيات قرآنية جاء فيها لفظ الله، مثل: بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله رب العالمين - الله لا إله إلا هو الحي القيوم - فاعلم أنه لا إله إلا الله... أو أي آيات قرآنية يأتي فيها لفظ الذات، أو لفظ الجلالة «الله» قال الباحث الهولندي غير المسلم: عندما أحضرت هؤلاء الناس، وكان معظمهم مَرْضَى، وعندهم اكتئاب وأمراض نفسية، فإنهم بعد هذه التجربة الجميلة، فإن الله سبحانه وتعالى أذن لهم جميعًا بالشفاء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾... [التوبة:١٤].

أي: يا معشر المؤمنين قاتلوا أعداء الله يعذبهم عز وجل بأيديكم، ويذلهم بالهزيمة والخزي، وينصركم عليهم، ويُعْلِ كلمته، ويشف بهزيمتهم صدوركم التي طالما لحق بها الحزن والغم من كيد هؤلاء المشركين.

هذا الباحث أخذ الجهاز التنفسي على مراحل وأجزاء، وبدأ يقطع -أي: يفصل أجزاء الجهاز التنفسي- بطريقة وصفية، وكل جزء في الجهاز التنفسي عند الإنسان يستجيب لحرف أو صوت من لفظ الجلالة الله، كل جزء في صدرك يستجيب لكلمة الله بإحساس معين؛ ولذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ....[العنكبوت: ٤٩].

بل القرآن آيات بينات واضحة في الدلالة على الحق يحفظه العلماء، وما يكذِّب بآياتنا، ويردها إلا الظالمون المعاندون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

أين القلب؟ داخل الصدر، ولكن تعمى القلوب التي تستقر في الصدور، أي: مع ذِكرِ الله تعالى يحدث أمران: الأمر الأول: أن الصدر ينشرح، الأمر الثاني: أن القلب يطمئن، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ....[الحجر: ٩٧-٩٩].

ولقد نعلم بانقباض صدرك -أيها الرسول- بسبب ما يقوله المشركون فيك وفي دعوتك، فافزع إلى ربك عند ضيق صدرك، وسَبِّح بحمده شاكرًا له مثنيًا عليه، وكن من المصلِّين لله العابدين له، فإن ذلك يكفيك ما أهمَّك.

واستمِرَّ في عبادة ربك مدة حياتك حتى يأتيك اليقين؛ وهو الموت، وامتثل رسول الله ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في عبادة الله، حتى أتاه اليقين من ربه.

فالباحث الهولندي أجرى الدراسة على القفص الصدري، وبدأ الناس يقولون كلمة «الله»، ويبحث هو عن طريق أجهزة معينة أثر لفظ الألف، ثم اللام الأولى، واللام الثانية، ثم حرف الهاء فوجد أشياء عجيبة جدًّا، فالبحث ممتاز، ونتائجه تهمنا.

ويجب على المسلمين أن يعرفوا هذا الكلام، إذا كان هؤلاء غير مسلمين، ويجرون بحوثًا على كلمة الله، وعلى تأثير كلمة الله، وهي الأساس في حياتنا، وهي الأساس في أمتنا، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ ....[محمد:١٩].

فاعلم -أيها النبي- أنه لا معبود بحق إلا الله، واستغفر لذنبك، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، والله يعلم تصرفكم في يقظتكم نهارًا، ومستقركم في نومكم ليلاً.

فلاحظ هذا الرجل شيئًا عجيبًا جدًّا؛ وهو أن أكثر الناس تفاعلاً مع كلمة «الله» هم أسرع الناس شفاءً، أي: الذي يذكر بإخلاص هو الذي يتفاعل مع كلمة الله، الذي قال عنه الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ....[الأنفال:٢].

إنما المؤمنون باللَّه حقًّا هم الذين إذا ذُكِر الله فزعت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آيات القرآن زادتهم إيمانًا مع إيمانهم؛ لتدبرهم لمعانيه، وعلى الله تعالى يتوكلون، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه.

وللعلم فهذه الدراسة أجريت على مدى ثلاث سنوات، أي أنه بحث علمي مقنن تجريبي أكاديمي، والنتيجة أن اسم الله سبحانه وتعالى عالج أمراضًا ثلاثة: الاكتئاب، والقلق، والتوتر، ولاحظ الباحث الهولندي: أن حرف الألف يصدر من المنطقة التي تعلو الصدر، فماذا يحدث؟ هذه أول منطقة يحدث فيها التنفس، فتبدأ تتسع مجريات التنفس، فيبدأ الواحد مع حرف الألف يستشعر أن النفس يخرج بطريقة طبيعية، فيستشعر ارتياحًا داخليًّا، ثم يأتي بعد ذلك الألف اللام، ولسانك معلق في سقف الحنك، اللسان معلق في الجزء الأول من الفك أو الحنك، وهذه الحركة تستمر لمدة ثوانٍ، ومع تكرارها يحدث راحة في النفس، وراحة في التنفس مع كلمة الله.

ثم يريد الإنسان أن يُخرِج حرف الهاء، فيحدث نوع من انفراج اللسان، ويبدأ اللسان ينزل مع حرف الهاء؛ لأن الهاء تأتي من مكان أعمق في الجهاز التنفسي، فالهاء بخلاف حرف اللام الذي يأتي عندما يكون اللسان ملصقًا في الفك الأعلى؛ فيؤدي النطق بحرف الهاء إلى حدوث ارتباط بين الرئتين وبين القلب؛ ولذلك يقول: إن حرف الهاء في لفظ الجلالة يحدث نوعًا من التناسق بين القلب الذي هو مضخة الدم، والرئتين اللتين

هما أساس التنفس؛ إذ إن هناك وحدة عضوية بين القلب والرئتين، وبين الصدر والقلب عن طريق حرف الهاء؛ ولذا فهذا يؤدي إلى انتظام ضربات القلب؛ ولذا قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ .....[الرعد:٢٨].

إذًا تحدث هذا الجزء عن فن الذكر والتعايش مع كتاب الله، وكيف يعيش المسلم هذه الحالة الإيمانية العالية، وكيف يقتدي بالنبي ﷺ والصالحين في التعايش مع كتاب الله تعالى، وكيف يتحصل على الأجر من كل أعماله، ثم ننتقل بالحديث إلى أن هناك جلودًا ذاكرة تذكر الله كالإنسان، فاحرص على أن تكون من أصحاب هذه الجلود.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّي أَحْسَنَ قَبُولٍ، وَزَيِّنِي بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنِي فِيهِ مِنَ الأَتْقِيَاءِ الأَخْيَارِ الهُدَاةِ الأَبْرَارِ، وَفُكَّ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ، وَارْزُقْنِي رِضَاكَ وَالجَنَّةَ، وَجَنِّبْنِي سَخَطَكَ وَالنَّارَ، وَارْحَمْنِي فَأَنْتَ أَهْلُ الرَّحْمَةِ، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ فَأَنْتَ أَهْلُ الفَضْلِ وَالتَّفَضُّلِ، وَأَعْطِنِي حَوَائِجَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَمْنِ وَالعَافِيَةِ، وَالغِنَى وَالمَغْفِرَةِ، وَخَلِّصْنِي مِنْ مَظَالِمِ العِبَادِ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الزُّهَّادِ وَالعُبَّادِ الزَاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَاجْعَلْهُ كَفَّارَةً لِمَا سَبَقَ مِنْ ذُنُوبِنَا، وَعِصْمَةً فِيمَا بَقِي مِنْ أَعْمَارِنَا، وَارْزُقْنَا أَعْمَالًا صَالِحَةً تَرْضَى بِهَا عَنَّا يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا فِيهِ مِنَ المَقْبُولِينَ، وَلَا تَجْعَلْنَا فِيهِ مِنَ المَرْدُودِينَ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْهُ مِنَّا، وَأَعِدْهُ عَلَيْنَا سِنِينًا بَعْدَ سِنِينٍ مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد مفتاح باب رحمة الله عدد ما في علم الله، صلاة وسلامًا دائمين بدوام ملك الله.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الحبيب المحبوب، الذي تشتاق إليه الأرواح، وتحن إليه القلوب، وعلى آله وصحبه وسلم.

❁❁❁❁